المحافظة الجديدة رداً على الثقافة المضادة

جين كيركباتريك

المحافظة الجديدة رداً على الثقافة المضادة

جين كيركباتريك

أعتقد أن المرة الأولى التي قيل فيها عني محافظة جديدة كانت بعد عام 1972 ببعض الوقت، أي بعد الحروب الثقافية التي ظلت محتدمة على امتداد عقد من الزمن في الحزب الديمقراطي. تمخضت تلك الحروب عن شق الحزب وأفضت مباشرة إلى تسمية جورج ماكغفرن George McGovern مرشحاً رئاسياً ديمقراطياً لانتخابات 1972، وإلى تأسيس تكتل ديمقراطي يحمل اسم التحالف من أجل الأكثرية الديمقراطية (السي. دي. إم. CDM). جاء ذلك متزامناً تقريباً مع انتقالي إلى نيويورك لتولي رئاسة وفد الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة. أي في كانون الثاني/ يناير 1981.

أربكتني تسمية محافظة جديدة. لم يكن قد سبق لي قط أن ظننت نفسي محافظة من أي لون. ما معنى محافظة جديدة؟ سألت صديقي إرفنغ كرستول، الذي كان يوصف على نطاق واسع بأنه الأب الروحي لحركة المحافظين الجدد أو عرابها. رد دون تردد قائلاً: إن المحافظ الجديد ليس إلا ليبرالياً صفعه الواقع غَدْراً. بمعنى أنه، حسب ما رأيت، شخص ذو ماض ليبرالي. إن هذا الماضي الليبرالي هو الذي ميز أي محافظ جديد عن أي محافظ تقليدي، كما يقول راسل كيرك Russell Kirk أو بل بَكلي Bill Buckley، أو جميع الآخرين الذين كانوا قد بدؤوا هذه الحياة السياسية محافظين تقليديين. أما المحافظ الجديد فكان قد تبنى قيماً ليبرالية وربما لم يتخل عنها قط، إلا أنه أحس بالضيق إزاء جملة الانعطافات والتقلبات التي أقدم عليها عدد كبير من منتسبي الصفوف الليبرالية. وهكذا فقد

اقتنعت بأن المحافظ الجديد خرج من رحم نوع من رد الفعل على ثقافة مضادة كانت طاغية على السياسة الأمريكية عبر عقدي الستينيات والسبعينيات.

صحيح أن الصيغ المتطرفة لهذه الثقافة المضادة كانت قد اختفت مع حلول عام 1976، غير أن المخلفات كانت أكثر دواماً. كانت تأثيراتها في ما كان معروفاً باسم السياسة الليبرالية عميقة ومتجذرة. إن الثقافة المضادة كانت أوسع بكثير من حركة معاداة الحرب التي ارتبطت بها. وقد شكلت، فيما أرى، رفضاً كاسحاً لجملة المواقف، القيم، والأهداف التقليدية الأمريكية. كادت الثقافة المضادة أن تُخضع جل مناحي الحياة والثقافة الأمريكيتين للنقد والإدانة.

كانت الثورة الثقافية المتفاعلة في المجتمع الأمريكي مستعرة أيضاً في الأمم المتحدة التي كانت فعالياتها ومواصفات أعضائها قد تغيرت جراء موجة إزالة الاستعمار التي حررت العديد من المستعمرات الخاضعة للقوى الكولونيالية السابقة في أفريقيا، آسيا، والشرق الأوسط قالبة تركيبة عضوية الأمم المتحدة رأساً على عقب ومضفية قوة درامية مثيرة على آراء وأصوات المستعمرات السابقة.

تمثلت إحدى النتائج بثورة في القضايا التي ما لبثت، وبسرعة لافتة، أن طغت على جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة وهيئات الأمم المتحدة الأخرى بما فيها اليونسكو، اليو. إن. دي. بي. والإيكوسكو.

قامت الثورة الثقافية باجتياح سلسلة طويلة من المدن الأمريكية، من المجمعات السكنية الجامعية، ومن مكاتب وسائل الإعلام، متحدية معتقدات أمريكية أساسية ومغيِّرة ممارسات أمريكية مؤسساتية. كان هذا زمناً كتب فيه أحد كبار المعلقين في النيويورك تايمز أن «الولايات المتحدة هي القوة الأخطر والأكثر تدميراً في العالم». كان زمناً أكد فيه رئيس إحدى كبرى الجامعات ما يلي: «في السنوات الست والعشرين التي مضت على خوض الحرب على قوى الطغيان، الفاشية، والإبادة في أوربا، أصبحنا أمة أكثر استبداداً، أكثر فاشية، وأكثر قابلية لاقتراف جريمة الإبادة مما كان متصوراً أو معتقداً إمكانية حدوثه قبل

عقدين من الزمن. لقد هزمنا هتلر ولكننا ما برحنا أن عانقنا الهتلرية». هذه كانت الفترة التي أقدم فيها رجل دين ذو شهرة قومية على قول: «إن سبب نوبة الأعراض المرضية في وجدان الأمة إن هو، ببساطة، إلا أن كالي* هو كل واحد منا. إنه كل مواطن فرد في أرضنا اليباب هذه. ألا يكفي؟»

إذا كانت الولايات المتحدة «القوة الأكثر تدميراً في العالم»، إذا كنا «قابلين لاقتراف جريمة الإبادة»، إذا كانت «أرضنا يباباً»، فإن من شأن الدفاع عن مصلحتنا القومية ألا يكون عضوي الارتباط بالدفاع عن حقوق الإنسان أو أي قضية أخرى جديرة أخلاقياً.

طوال بقاء الولايات المتحدة مجتمعاً فاضلاً في تصور الناس، ظلت السياسات والخطط الرامية إلى تعزيز القوة الأمريكية تُعد هي الأخرى فاضلة. ظل قطبا الأخلاق والقوة الأمريكية مترابطين ترابطاً يتعذر انفصامه في التصور التقليدي السائد. أما بعد أن أصبحت الولايات المتحدة توصم أساساً على أنها مجتمع لا أخلاقي، فقد صار تقويم و/أو تعزيز القوة يُنْظَر إليه على أنه مناف للأخلاق. باتت الأخلاق الآن تستدعي قلب مجتمعنا المختل في العمق رأساً على عقب، لا تعزيز قوته.

ثمة أستاذ لاهوت، باحث، صديق، معين حديثاً في منصب مندوب الولايات المتحدة في لجنة حقوق الإنسان، اسمه مايكل نوفاكMichael Novak، كتب لي من اجتماع جنيف للجنة حقوق الإنسان الدولية في شباط/ فبراير 1981 ما يلي: «إذا استمرت الأمور على حالها، فإننا سنصبح أمة منبوذة بعد أعوام قليلة. خطابياً نحن كذلك من الآن. فالمراقبون السويديون، صغار المندوبين الأستراليين، وبعض الأوربيين الغربيين باتوا يروننا كأعداء». كان نوفاك يصاب بصدمة عميقة إزاء الهجوم شبه اليومي على الولايات المتحدة (وإسرائيل) في لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، إزاء رد فعل، وغياب ردود أفعال، حلفائنا، وإزاء النجاح الذي كان

* كالي: قائد المفرزة الأمريكية التي اقترفت مذبحة ماي لاي الشهيرة في فيتنام. المعرب

الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية قد حققاه في إعادة تحديد معاني مفاهيم الليبرالية الديمقراطية المفتاحية والاستيلاء عليها.

لم يكن نوفاك أول من لاحظ تحول الأمم المتحدة إلى منبر للهجوم المتواصل على قيم الليبرالية الديمقراطية ومؤسساتها. فوليم إل. بكلي قد كتب عن ذلك بعد اضطلاعه بمهمة مندوب شعبي إلى الجمعية العمومية. وكان المرحوم دانييل باتريك موينهان قد تنبه إلى هذه الظاهرة خلال توليه لمنصب الممثل الدائم في 1975 وقد كنت أنا بادئة، حتى منذ ذلك الحين، ألاحظ الأمر في نيويورك.

أصيب نوفاك بالذهول إزاء المدى الذي كانت قد بلغته عملية إعادة تحديد معنى العالم السياسي، المدى الذي بلغته الأمم المتحدة في التحول إلى كون معرفي خاضع لهيمنة لغة، قيم، وأنماط فهم معادية لنظائرها عندنا. كان موينهان قد لاحظ ذلك أيضاً، إذ كان حتى قبل ذهابه إلى الأمم المتحدة قد كتب مقالة شهيرة في مجلة كومنتري، دعا فيها الولايات المتحدة إلى التصدي لهذا التحدي الذي بات يهدد جملة قيم الديمقراطية الليبرالية ومؤسساتها، وإلى الدفاع عن مواطنيها.

كنت قد قرأت كتابات بَكْلي، موينهان، كونور كروز أوبرايان، وحاييم هيرتزوغ عن الأمم المتحدة غير أنني لم أكن بعد واعياً لمدى عمق الثورة التي كانت قد حدثت هناك.

كان صديق وأستاذ علوم اجتماعية ممتاز يدعى هارولد لاسْوَلْ Harold Lasswell، قد كتب أن أي ثورة إن هي إلا انقلاب ملحوظ في مفردات النخبة وأسلوبها الإنشائي.

في إطار الأمم المتحدة كان تغيير ثوري في أسلوب ومفردات النخبة قد حصل قبل وصول رونالد ريغان إلى البيت الأبيض، أو وصولي أنا إلى الأمم المتحدة، أو وصول مايكل نوفاك إلى جنيف لحضور اجتماع لجنة حقوق الإنسان الدولية، بأكثر من عقد من السنين، غير أننا لم نكن قد فهمنا ما حصل بعد.

قبل الثورة، كان ممثلو الحكومات الديمقراطية متمتعين بنفوذ مهيمن فيما يخص جدول أعمال الأمم المتحدة، إدارتها، وسياساتها. كانت اللغة الأصلية للأمم المتحدة هي لغة ميثاق الأمم المتحدة، طبعة أممية مثالية للديمقراطية الليبرالية. ولكن الهيكلية الديمقراطية للأمم المتحدة كانت تضمن سرعة انعكاس آراء وقيم عشرات الدول الجديدة الملتحقة بركب الأمم المتحدة على المنظمة. والكثير من تلك الآراء والقيم كانت شديدة التباين. فلغة الحكومات الجديدة كانت في الغالب قومية، اشتراكية، و«غير منحازة». وحركة عدم الانحياز التي أسسها في 1961 تيتو، ناصر، ونهرو [قادة يوغسلافيا، مصر والهند، على التوالي] كانت في البداية وفية لاسمها، منظمة دول «غير منضوية» تحت جناح أي من العالمين الديمقراطي والشيوعي. ثم ما لبثت الحركة نفسها أن انقلبت تدريجياً. صارت حركة عدم الانحياز رهينة بأيدي دول مرتبطة بموسكو. فمع حلول عام 1968 أخفقت الحركة في إدانة الغزو السوفييتي لتشيوسلوفاكيا. وبعد عقد من الزمن قابلت الحركة غزو أفغانستان بـ«صمت القبور» حسب تعبير إحدى الدول الأعضاء. ومع صيرورة كوبا رئيسة حركة عدم الانحياز في 1979، كانت الحركة تُسَيَّر وتُدار بانتظام وفعالية من قبل مجموعة من الدول الأعضاء المستعدة باستمرار لتأييد سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية. فخلال فترة رئاسة كوبا كانت محاولات دفع الحركة باتجاه التحالف مع الاتحاد السوفييتي تتكثف بفعل الرئاسة الكوبية التي ظلت تؤكد أن الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي حليفان طبيعيان لبلدان عدم الانحياز.

رغم محاولات كوبا الحثيثة، أحجمت الحركة عن إلزام أعضائها رسمياً بمبدأ، "الحلفاء الطبيعيين"، غير أن لغة الحركة ومواقفها بقيت قومية، اشتراكية، ومعادية لجملة القيم، التحالفات، والمصالح الديمقراطية. والأهم هو أن لغة بلاغات الحركة والمواقف التي دأبت إلى تأييدها ظلت تعكس توجهاً كوكبياً وكَوْناً معرفياً كانا من نواح كثيرة متنافرين مع نظيريهما في العالم الديمقراطي حيث يبقى مبدأ «تقرير مصير الذات» عاكساً خيارات المواطنين، ومبدأ «الاستقلال

القومي» عاكساً لمواقف بلدان مستقلة مئة بالمئة، ومبدأ «إعادة هيكلة الاقتصاد العالمي» منطوياً على معنى إعادة توزيع ثروة «العالم».

دأب عالم حركة عدم الانحياز على الإكثار من الكلام المجرد إطراء لـ«المساواة السيادية بين الدول» غير أنه ظل مستمراً، وبانتظام، يتعامل مع بعض الدول والتجمعات على أنها أكثر مساواة من غيرها. ويضع إسرائيل في آخر السلم.

لأكن واضحة. لم تكن دول دائرة في الفلك السوفييتي متحكمة بحركة عدم الانحياز، ولا بدول العالم الثالث التي كانت تؤلف أكثرية ساحقة في الحركة. أضف إلى ذلك أن بلاغات هذه لحركة كانت تضطر في النهاية إلى إبداء بعض الملاحظات الخجلى والمترددة إزاء غزو أفغانستان وكمبوديا واحتلالهما المتواصل. إلا أن انتماء الدول العملية للسوفييت في حركة عدم الانحياز كان يضفي عليها ما أطلق عليه الماركسيون الإيطاليون اسم «الهيمنة».

أنا لا أزعم أن السوفييت كانوا متحكمين بكل شيء يحدث في الأمم المتحدة. لم يكونوا كذلك. أنا أقول إن أولويات إجراءات الأمم المتحدة، افتراضاتها، وشروط خطابها باتت، لأسباب مختلفة – منها القرابة الإيديولوجية والتلاعب التنظيمي – أقرب بكثير إلى المفاهيم السوفييتية منها إلى نظيرتها الأمريكية. وشيئاً فشيئاً نجحت الثقافة المضادة في تثوير الحياة الفكرية في أمريكا ودفعها إلى التطرف.

في وسائل الإعلام، في الجامعات، في النقاشات العامة، وفي المظاهرات، انخرط عدد كبير من الأمريكيين في دورات نقد ذاتي ومتبادل متواصل وبالغ الحرارة والعنف تعرضت فيها حياتنا الجماعية للهجوم. كان العدو هو نحن على الدوام.

تعرضت مرجعيات السلطة – الآباء والأمهات، رجال الشرطة، الرؤساء، القضاة، المحامون، المحافظون – للهجوم بحماس وضراوة يصعب تذكرهما. أقدم عناصر الحرس الأحمر الأمريكي على مهاجمة أعداد من أساتذة الجامعات،

السياسيين، رجال الشرطة، وموظفي الدولة بالحشود، بالحجارة، بآيات السباب الشنيعة، وبالمسدسات أحياناً. في [جامعات] بيركلي، كولومبيا، هارفارد، كَنْت، وعشرات المؤسسات المشابهة، تعرضت أسس الليبرالية التقليدية والديمقراطية للنبذ والإنكار، وتعرض أنصارها للهجوم داخل الفصول الدراسية وفي الشوارع.

على الرغم من التأكيد العام القائل بأن الحرب الفيتنامية هي التي فَرّخَتْ الثقافة المضادة، فقد كنتُ مؤمنة بأن العكس هو الصحيح. اعتقدت أن الهجوم الإيديولوجي على رموز السلطة وهيكلياتها سبق حركة معاداة الحرب وجعلها ممكنة.

ألقى تحليل ليونيل تريلنغ Lionel Trilling لـ «الثقافة المعاكسة» – الذي كان قبل حركة مناهضة الحرب – الضوء على كيفية انتشار مواقف معادية للقيم الأمريكية التقليدية من حلقات الطليعة إلى أوساط واسعة بالتدريج. إن أسئلة الثقافة المضادة وأشكال رفضها وفرت فرص قيام الطبقة الوسطى بمقاومة مطالب حركة مناهضة الحرب.

لم يكن الوجه المركزي لهذه الحركة نبْذَها للحرب الفيتنامية بمقدار ما كان رفضَها للولايات المتحدة. لم تكن الحجة أن الحرب كانت حمقاء وغير ضرورية بمقدار ما كانت أن أمريكا كانت لاأخلاقية – كانت مجتمعاً مريضاً، مبتلياً بالعنصرية، بالنزعة المادية، بالنزعة الإمبريالية، وبقتل أبناء العالم الثالث في فيتنام.

ما لبث هذا الرفض الحماسي – لما كانته أمريكا لا لما كانت تفعله – أن تحول إلى نوع من الهجوم الشامل على شرعية المجتمع الأمريكي. أعتقد أن هذا الهجوم سرعان ما أصبح منطلق موقف المحافظين الجدد المناوئ. فهؤلاء المحافظون الجدد لم يكونوا قد تغربوا جذرياً عن الحياة والمجتمع الأمريكيين.

ظلت الليبرالية القديمة – الداعية إلى دولة رفاه استيعابية في الشؤون الداخلية والمتحلية بالصفة الأممية في الشؤون الخارجية – دائبة على تأكيد الحاجة إلى القوة العسكرية، وعلى مقاومة العدوان والتخريب السوفييتيين ضد دول مستقلة.

جاءت حملة جورج ماكغفرن الرئاسية منبراً رئيسياً لمواقف الثقافة المضادة ومقارباتها في السياسة الرئاسية لعام 1972 ـ فهذه الحملة لم تكتف بالدعوة إلى الانسحاب المباشر للولايات المتحدة من حرب فيتنام، معلنة عدم اكتراثها بانتشار الحكم الشيوعي في فيتنام وجنوب – شرق آسيا، بل وأقدمت على تبني تفسير جديد قائم على المراجعة النقدية والارتداد لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وفي تلك النظرة الارتدادية (التي روّجها هنري واليس Henry Wallace للمرة الأولى في 1948)، حُمِّلت الولايات المتحدة مسؤولية رئيسية فيما يخص الحرب الباردة والتوسع السوفييتي.

كان الليبراليون التقليديون يؤمنون بأن الولايات المتحدة، رغم الافتقار إلى الكمال، مجتمع ناجح يوفر الحرية ومستويات الحياة الكريمة لمعظم المواطنين. لم يساورنا أي شك بأن من الممكن تحسين أحوال المجتمع الأمريكي، غير أننا كنا نرى أن من الواجب الحفاظ عليه أولاً. كنا مؤمنين، إضافة إلى ذلك، بأن أكبر أوجه الاختلاف كان بين الديمقراطية والشمولية. ومن هنا فإننا لم نكن قادرين على اتخاذ موقف اللامبالاة من انتشار النفوذ السوفييتي أو من العواقب الإنسانية المترتبة على انبثاق أنظمة حكم استبدادية جديدة.

على غرار محافظي التيار الرئيسي، الجمهوريين، وليبراليي التيار الرئيسي، الذين كنا في تلك الأيام نظن أننا منهم، أقلقنا هاجسُ التخلي عن شعب فيتنام الجنوبية وتركه تحت رحمة فيتنام الشمالية، كما أقلقنا هاجس هشاشة البلدان المجاورة لفيتنام في وجه جيوش فيتنامية شمالية مظفرة. كنا محقين في قلقنا. لقد تم إرسال مئات الألوف من الفيتناميين الجنوبيين إلى معسكرات إعادة التثقيف، معسكرات السخرة العبودية في الشمال، أقدم الآلاف على المخاطرة بحياتهم أمام غوائل أسماك القرش، البوليس، الغرق، والقرصنة نشداناً للفرار من الحكم الاستبدادي الذي دأبنا على حمايتهم منه بالذات.

أعتقد أن السياسة الجديدة كانت من البداية متميزة بنوع من النزوع المطرد إلى لوم أمريكا أولاً ودون هوادة، وإلى إبداء آيات التفهم، وسعة الصدر، المنكرة

على الولايات المتحدة، في التعامل مع الآخرين. ما زلت أشعر بنوع من الانتماء إلى الليبرالية التقليدية، ولكن مع قدر أكبر من السخط على ليبرالية الثقافة المضادة. أظن أن ذلك يلحقني بركب المحافظين الجدد.

وبوصفي محافظة جديدة، أتفق مع إرفنغ كرستول على أن دولة نظام الرفاه كانت وينبغي أن تبقى، موجودة، ومع أولئك الذين يشاطرونني قدراً من الشك الصحي إزاء بعض المنظمات متعددة القوميات.